التجديد عند حافظ إبراهيم

أ.م.د. مؤيد عبد الوهاب جبار
عمر يوسف حميد
جامعة تكريت – كلية التربية – سامراء

تمهيد:

لقد حفل أدبنا الحديث بنماذج رائعة لشعراء ارتقوا بمستوى الشعر العربي بعد عهود من الجهل والتخلف ، وعبروا في شعرهم عن الآم شعبهم وأمتهم في عصر تسلطت فيه سيوف المحتلين والحكومات العميلة لهم على رقاب الشعوب العربية. ومن هؤلاء الشعراء (حافظ إبراهيم)، واسمه الكامل« محمد حافظ بن إبراهيم فهمي»[١] ولد سنة ١٨٧٢م من أبٍ مصري وأمٍّ تركية في ديروط إحدى بلدات صعيد مصر[٢]توفي أبوه وهو صغير فكفله خاله ، وفي مدة التعليم الابتدائي لم يظهر تفوقًا في تعلمه ، ثم انتقل إلى مدينة (طنطا) وأخذ يختلف إلى الدروس الدينية التي تلقى في(المعهد الأحمدي الديني)، وهناك كان يقضي معظم وقته مع طلاب المعهد يقرأ في بعض كتبهم، ويتذاكرون الأدب فيما بينهم، ويتطارحون الشعر[٣] .

عمل في المحاماة زمنًا ، ثم تركها واتجه إلى المدرسة الحربية في القاهرة سنة ١٨٩٠م وتخرج منها ضابطا برتبة ملازم ثان ولم يستفد حافظ كثيرًا خلال هذه المدة التي قضاها في هذه المدرسة لأن مناهجها كانت ضعيفة بسبب تدخل السلطة آنذاك في برامج التعليم بل جاءت ثقافته من خلال مطالعاته الشخصية وربما كان تحوله من المحاماة إلى المدرسة الحربية بسبب تأثره بالشاعر الكبير (محمود سامي البارودي) حيث إن البارودي درس في المدرسة الحربية ، فلم يسر حافظ على خطى البارودي في الشعر فحسب ، بل حتى في المدرسة التي درس فيها[٤] .

تم استدعاء حافظ من وزارة الحربية للمشاركة في الحملة البريطانية للقضاء على الثورة المهدية في السودان عام ١٨٩٦م ، ثم حدثت في السودان ثورة في الجيش المصري المشارك مع الحملة اتهم فيها حافظ مع سبعة عشر ضابطًا بالتحريض عليها فحوكم وأحيل على الاستيداع عام ١٩٠٠م ، بعدها أحيل إلى التقاعد من خدمة الجيش عام ١٩٠٣م فبدأ بالبحث عن عمل جديد ، ولم يكن ذلك سهلا فقد طلب تعيينه في جريدة الأهرام ، ولكن طلبه رفض مع أن أحمد شوقي توسَّط له في ذلك لعلاقته بالقصر ، فأخذ في تلك المدة يختلف إلى مجلس الإمام (محمد عبده) ، وقويت صلته به ، وقد عطف عليه الإمام وأنهله من علمه وفضله ، وتمكن من الاتصال بطبقات مختلفة من الشعب المصري ، فقد عايش حافظ الطبقة الممتازة من الشعب والتي تضم شخصيات سياسية ودينية واجتماعية مرموقة كانت تسعى إلى إصلاح أوضاع البلاد والنهوض بها أمثال: سعد زغلول ، ومصطفى كامل ، والشيخ علي يوسف وغيرهم، وعايش كذلك أقرانه من الأدباء الذين كانوا يتفاوتون في مستوياتهم المعاشية ، وعلى النحو نفسه كان حافظ يخالط عامة الشعب نتيجة فقره[٥] ولعل هذا ما جعل الحس الوطني يتضح في شعره.

وفي سنة ١٩١١م عين حافظ رئيسًا للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية ، وبقي في هذه الوظيفة حتى أحيل إلى التقاعد سنة ١٩٣٢م ، وقد أصيب حافظ بداء السكري عام ١٩٢٢م ، وعاش الأعوام الأخيرة من عمره مترقبًا للموت إذ كان يرى أصحابه يموتون الواحد تلو الآخر ، فأيقن حافظ بأنَّه لاحق بهم عن قريب ، وكثيرًا ما عبَّر عن ذلك في مرثياته لأصحابه[٦]. ومن ذلك قوله[٧]:

تفرَّق أهلي وأحبابي وأخَّرت ... يد الله يومي فانتظرت أواني

وفي يوم الخميس ٢٢ تموز ١٩٣٢م توفي حافظ إبراهيم ، وشيِّعت جنازته بحضور العديد من الأدباء والسياسيين ، كخليل مطران ، وعبد العزيز البشري ، ومصطفى النَّحاس ، فضلا عن أقرانه من كبار الشعراء كأحمد شوقي[٨] الذي رثاه بقصيدة يقول فيها[٩]:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي ... يا منصف الموتى من الأحياءِ
لكن سبقت وكل طول سلامة ... قدرٌ وكـلّ منـيةٍ بـقضـاءِ
الحق نادى فاستجبت ولم تزل ... بالحق تحفل عـند كلِّ نـداءِ

أغـراضه الشـعريـة:

ينتمي حافظ إبراهيم إلى مدرسة شعرية ظهرت في العصر الحديث أطلق عليها اسم «المدرسة التقليدية »التي استلهم شعراؤها التراث الشعري القديم، ونهجوا نهج مؤسسها(محمود سامي البارودي) في النسج على منوال الأشعار العربية القديمة، والحفاظ على الأصول التقليدية الموروثة وما يتصل بها من الصياغة الجزلة الرصينة التي تملأ النفس والسمع بما يشيع فيها من رونق وجمال[١٠]، و«انتشلوا الشعر من الوهاد المنحطة التي كان قد تردى فيها في عصور الإجداب الثقافي والتخلف السياسي على السواء وحاولوا النهوض به إلى

مستوياته الراقية التي بلغها ذات يوم على أيدي كبار الشعراء القدامى من أمثال البحتري وأبي تمام والمتنبي وأضرابهم ...» [١١].

وقد تناول حافظ في شعره الموضوعات التقليدية من مديح، وهجاء، وشكوى، ورثاء، وغزل، وخمريات، ووصف، وإخوانيات، وزاد إلى جانب هذه الموضوعات التقليدية موضوعين جديدين هما:السياسيات(ويدخل ضمنها الوطنيات)، والاجتماعيات.

ولا بد من الإشارة إلى أن ديوان حافظ لا يضم كل شعره لأنَّ حافظ لم يكن منظمًا في عمله، ولا حريصًا على تدوين شعره فإذا كتب قصيدةً فهو يكتبها في أيِّ ورقةٍ كيفما اتفق، ويلقيها حيثما اتفق، ولم يكن حريصًا على جمع شعره في ديوان، بل اعتمد في جمع ديوانه على ما نُشر في المجلات والصحف، وما كان من أشعاره عند بعض أصدقائه[١٢].

كذلك كانت له قصائد يهجو فيها الإنجليز والخديوي ورجال القصر وغيرهم من المتنفذين في السلطة زيادةً على كثير من شعره السياسي لم ينشره خوفا من السجن ، أو خوفا من فصله من وظيفته فقد ضاعت ولم يبقَ منها سوى أبياتٍ قليلةٍ، كقصيدته التي وجَّهها إلى سعد زغلول، فقد سقطت من ديوانه، ولم يبقَ منها سوى بيتٍ واحد هو[١٣]:

فما دام في قصر الدوبارة ربه فسعدٌ ودنلوبٌ لعمرك واحدُ

وقصيدته التي هجا فيها إسماعيل صدقي التي كانت نحو مائتي بيت، ولم يبقَ منها سوى أبياتٍ قليلة ومطلعها[١٤]:

قد مرَّ عامٌ يا سعادُ وعامُ وابن الكنانة في حماهُ يضامُ

وقد ذكر أحمد أمين في تحقيقه لديوان الشاعر حافظ إبراهيم أنَّه أشارَ على الشاعر أن ينشر هذه القصيدة أو يمليها أو يكتبها أو يحتفظ بها بأيِّ شكل فأخبره بأنَّه يخاف السجن ولا يحتمله[١٥].

ومع ذلك فالقسم الأكبر من شعره لا زال باقيًا، ونستطيع أن نرى من خلاله صورة واضحة عن موهبته الشعرية ونضوج الفن الشعري لديه بحيث تبوّأ هذه المكانة في الشعر العربي بصفته واحدًا من كِبار الشعراء إلى جانب معاصريه كأحمد شوقي وخليل مطران وإسماعيل صبري وغيرهم.

الأغراض التجديدية:

اختلط حافظ إبراهيم منذ نشأته بطبقات الشعب المصري، وعانى معهم ما عانوه من تسلط المحتل وظلم الحاكم، ولمَّا وجد أنَّ أغراض الشعر التقليدية من مديح وهجاءٍ ووصف وغير ذلك لا تلبي مطالبه في إيصال صوت شعبه والتعبير عمّا يأملونه ويألمونه آثرَ أن يقول الشعرَ في غرضين مستحدثين هما:

١. السياسيات والوطنيات:

يعد هذا الغرض من أبرز الأغراض في شعر حافظ إبراهيم إن لم يكن أبرزها، ولعل جودة شعره السياسي والوطني أحد أهم أسباب شهرته كأحد أعلام الشعر العربي في العصر الحديث.

وقد تضافرت عوامل عدة دفعته لنظم الشعر السياسي والوطني منها أنَّه نشأ من أسرة متوسطة الحال لم تخل معيشتها من شظف وبؤس رافقاه في حياته في ظلِّ احتلال بغيض، وحكومة فاسدة مما عمَّق في نفسه الشعور بالمرارة والظلم، كذلك كان لاحتكاكه بطبقات الشعب المصري أثرٌ كبير فقد عايش الطبقة العاملة الكادحة من عامَّة الشعب، وعانى معهم ما عانوه من صعاب، واختلط بطبقة المصلحين من زعماء الحركة الوطنية، ودعاة الإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي أمثال سعد زغلول، ومحمد عبده، ومصطفى كامل، وقاسم أمين الذين أذكوا فيه الروح الوطنية، وكانت خطبهم الحماسية وكتاباتهم تؤجج في نفسه الثورة والاحتجاج على الأوضاع السيئة القائمة في بلاده[١٦]، ولعل هذا التأثير الكبير للشعر السياسي والوطني عند حافظ يرجع إلى صدق عاطفته، وعمق إحساسه بمعاناة شعبه التي عايشها معهم غير متطلّع إليهم من برج عاجي فاصلاً آماله وعواطفه عن آمال وعواطف الشعب كما يفعل معظم الشعراء[١٧].

ولعل أهم ما يميز عاطفة حافظ أنَّها جديدة، فلم نعرف شاعرًا عربيًا قبله أو في زمنه أفاض في عاطفته الوطنية كما أفاض هو[١٨]، وقد أجاد حافظ في أحد وجهي الوطنية أكثر من إجادته لوجهها الآخر فالشعر السياسي والوطني يدور على التشاؤم والتفاؤل، والترغيب والترهيب، والمدح والذم أي يدور بين وجوه السرور ووجوه الحزن، فأجاد حافظ في وجوه الحزن أكثر من إجادته في وجوه السرور، لأن الضرب الأول أقرب إلى طبيعته الحزينة، أمّا السرور فهو قليل في نفسه حيث أنَّ طبيعة حافظ الحقيقية كانت تخالف ظاهره، فمع روح الدعابة التي عُرف بها بين من عرفوه، لكنّه كان حزينًا في أعماق نفسه، فهو كالممثل الذي يجيد الدور الهزلي، ويذوب حسرات في نفسه[١٩]، ولعل ذلك يرجع إلى ما قاساه خلال حياته من متاعبٍ وإلى معاناته ومعاناة أمته تحت نير الاحتلال .

ولم يكن حافظ إبراهيم شاعر وطنه وحسب، بل كان شاعر أمته العربية والإسلامية ، وكان يدعو إلى التآخي بين البلاد العربية لما بينها من أواصر في اللغة والدين والتأريخ، وكان ينتهز كل فرصة ممكنة ليدعو إلى الوحدة والتآخي، ونبذ البغضاء والخلافات بين أبناء الأمة[٢٠]. يقول عنه الدكتور طه حسين:« لم يكن فردًا يعيش لنفسه بنفسه، وإنما كانت مصر كلها، بل الشرق كله، بل الإنسانية كلها في كثير من الأحيان تعيش في هذا الرجل تحس بحسِّه، وتألم بقلبه، وتفكّر بعقله، وتنطق بلسانه، لا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعرًا جعلته طبيعته مرآةً صافية صادقة لحياة نفسه وحياة شعبه كحافظ»[٢١]

ومن قصائده في هذا المعنى قصيدة(سوريا ومصر). يقول في أولها[٢٢]:

لمصر أم لربوع الشام تنتسبُ ... هنا العلا وهناك المجد والحسبُ
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما ... قلب الهلال عليها خافقٌ يجبُ
خدران للضاد لم تهتك ستورهما ... ولا تحول عن مغناهما الأدبُ
أمُّ اللغاتِ غداة الفخر أمهما ... وإن سألت عن الآباءِ فالعربُ

ويقول في أثنائها:

إذا ألمَّت بوادي النيل نازلة ... باتت لها راسيات الشام تضطربُ
وإن دعا في ثرى الأهرام ذو ألم ... أجابه في ذرا لبنان منتحبُ
لو أخلص النيل والأردنّ ودَّهما ... تصافحت منهما الأمواهُ والعشبُ

فالشاعر في هذه الأبيات يصور شدَّة التآزر والتلاحم بين الأقطار العربية حتى أنَّ نهري النيل والأردن تكاد أن تتصافح مياههما وأعشابهما ، وفي هذا دلالة على إيمان الشاعر بالوحدة العربية وتبلور الفكرة القومية الأصيلة في ذهنه مما يدل على عمق إحساسه الوطني والقومي.

وقد أرسل إلى بعض حكام البلاد العربية يدعوهم إلى الحذر من وقوع بلادهم تحت احتلال أجنبي كما حصل لمصر، فقد أرسل إلى سلطان مراكش أبياتًا من الشعر يحذره فيها من التمادي في لهوه ومجونه يوم أرسلَ إلى مصر في طلب جماعة من المطربين والمطربات لئلا يحصل لبلاده ما حصل للأندلس حين سقطت بيد الأعداء. يقول في أبياته[٢٣]:

عبدَ العزيز قد ذكَّرتنا أممًا ... كانت جوارك في لهو وفي طربِ
ذكرتنا يوم ضاعت أرضُ أندلس ... الحرب في الباب والسلطان في اللعبِ
فاحذر على التخت أن يسري الخرابُ لهُ ... فتختُ سلطانة أعدى من الجربِ

وكثيرًا ما استخدم أسلوب التقريع والتأنيب لأبناء شعبه وأمته، مستخدمًا لعباراتٍ تنم عن حنق ويأسَ وثورة نفسية عارمة[٢٤]. كقوله[٢٥]:

وشعبٌ يفرُّ من الصالحات ... فرار السليم من الأجربِ

ويقول في قصيدةٍ أخرى[٢٦]:

أمَّة قد فتَّ في ساعِدها ... بغضها الأهل وحبَّ الغربا
تعشق الألقابَ في غير العلا ... وتفدِّي بالنفوس الرّتبا
وهيَ والأحداث تستهدفها ... تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالي لعب القوم بها ... أم بها صرفُ اللَّيالي لعبا

فحافظ هنا يعيب على أمته بغض أبناء جلدتها ، وحب الأجانب الغرباء ، وعشق العرب للمناصب والألقاب ، وعدم شعورهم بالمسؤولية تجاه قضايا أوطانهم وأمتهم ، وانغماسهم باللهو والطرب واللامبالاة تجاه ما يواجهون من تحديات وما يخطط له أعداء الأمة للنيل منها ومن وحدتها.

ولم يكن شعره على وتيرةٍ واحدة من الحماسة، فالمتطلع في شعر حافظ يجد أنَّ هناك تذبذبًا في قوة الخطاب في شعره السياسي والوطني، فنجده يلين الخطاب مع المحتلين حينًا، ونجده ساخطا حانقًا عليهم متوعدًا لهم حينًا آخر، فبعد إحالته إلى الاستيداع اعتمد مع المحتلين الخطاب اللَّين الذي قد يصل إلى الإعجاب بهم أحيانًا، كقوله في تهنئة إدوارد السابع بتتويجه ملكًا على بريطانيا[٢٧]:

يا دولة فوق أعلام لها أسدٌ ... تخشى بوادره الدنيا إذا زأرا
بالأمس كانت عليك الشمس ضاحية ... واليوم فوق ذراك البدر قد سفرا
يؤول عرشك من شمس إلى قمر ... إن غابت الشمسُ أولت تاجها القمرا

وله قصائد أخرى في رثاء(الملكة فكتوريا)، ووداع اللورد كرومر. يقول في الأخيرة[٢٨]:

سـنطري أياديك التي قد أفضتها عليـــــــــنا فسنا أمة تجحد اليدا
أمِنَّا فلم يسلك بنا الخوف مـــــــــسلكًا ونـــــمنا فلم يطرق لنا الذعرُ مرقدا
وكنت رحيم القلب تحمي ضعيفنا وتدفــع عنّا حادث الدهر إن عدا

ويذكر انقسام الناس في اللورد كرومر على فريقين: فمنهم من يرى فيه المحسن المتفضل، ومنهم من يرى فيه المتغطرس المتجبِّر، والشاعر في عرضه لآراء الفريقين يعرض حججهم بذكر أعماله الحسنة عند من يرى فيه محسنًا، وأعماله السيئة لمن يرى فيه العكس. وفي مساوئه يقول:

يـــناديك أين النابغون بعهدكم وأيّ بـــــــــناءٍ شامخ قد تجددا
فما عهد إسماعيل والعيش ضيِّقٌ بأجـــــدب من عهدٍ لكم سال عسجدا
يناديك وليت الوزارة هيئـــــة من الصـــمِّ لم تسمع لأصواتنا صدا
فليس بها عند التشاور من فتـــىً أبيٍّ إذا ما أصدر الأمـــــــر أوردا
بربك ماذا صدَّنا ولوى بنـــــــا عن القصد إن كان السبيل ممهـــــدا
أشرت برأي في كتابك لم يكـــن سـديدًا ولكن كان ســهمًـــا مـسدَّدا
وحاولت إعطاء الغريب مكانـة تجرّ علينا الذلَّ والويل سرمدا

وهذا الأسلوب الموادع الذي اعتمده الشاعر في تلك السنوات بعد إحالته إلى الاستيداع سببه أمران: أحدهما أنَّ الشاعر كان لا يزال خائفًا من سجون المحتلّين وأذاهم فأراد مصانعتهم ليأمنَ كيدهم[٢٩]، والثاني أنَّ حافظ إبراهيم كان متأثرًا برأي أستاذه الإمام محمد عبده في الإنجليز فقد كان الإمام صديقًا للورد كرومر لأنَّه كان يدفع عنه أذى الخديوي عبّاس ويمكّنه من السير في إصلاحاته في الأزهر والقضاء[٣٠].

ولا يفوتنا أن نذكرَ أنَّ لمحمد عبده أيادٍ لا تنسى على الشاعر فقد علَّمهُ، وساهم في شهرته، وأعانه في فقره ، فلا غروَ أن ينتهج حافظ نهج أستاذه في موادعتهم، والعرفان بالجميل لهم[٣١].

ومما يدل على ذلك أنَّ فترة ما بعد وفاة الإمام وحتى عام ١٩١١م كانت فترة ازدهار للشعر السياسي والوطني لِحافظ إبراهيم، وبلوغه قمة النضج الفنّي، وأصبح حافظ الصوت الشعريَّ القويَّ للشعب يصرخ بوجه المحتل حينًا، ويستحثّ قومه حينًا آخر على الثورة ويستنهض همم أبناء قومه لتحقيق نهضة قويَّة تخلّصهم من قيود الاحتلال، وقد ساعده في ذلك عاملان: وطنيته الكامنة في نفسه، وظهور نخبة من الوطنيين المصريين أمثال مصطفى كامل، وسعد زغلول ممن أذكوا بخطبهم ومقالاتهم روح الثورة في الشعب المصري ورفضَ الاستسلام للاحتلال، فشرع حافظ إبراهيم ينشد أشعاره التي ليس فيها مهادنة للاحتلال، فقد نظم قصيدةً في مجزرة دنشواي، وبعد خمسة أيام من صدور الأحكام بالإعدام على ضحايا هذه المجزرة، فنشرها في الثاني من تموز عام ١٩٠٦م. ونلاحظ أنَّ حافظ يبتدئ في هذه القصيدة بما يوحي بأنَّه كمن يتحسَّس طريقا جديدًا غير مألوف لديه فتارةً نجده معاتبًا بلطف، أو نجده يتخذ أسلوب التهكم في خطابه، أو يسلك الشِدَّة والقوّة[٣٢]. يقول[٣٣]:

أيها القائمـــــون بالأمر فينا هـــــل نسـيتم ولاءنا والودادا
خفضوا جيشكم وناموا هنيئا وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكم ذات طـــــوق بين تلك الربى فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام ســـــواء لم تـــــــغادر أطواقنا الأجيادا
كيف يحلو من القوي التشفي من ضـــــعيفٍ ألقى إليه القيادا

ثم يخاطب قومه خطابًا قاسيًا ينعى فيه عليهم سكوتهم على ظلم المحتل:

أمة النيل أكبرت أن تعادي من رماها وأشفقت أن تعادى
ليس فيها إلا كـــــلام وإلا حسرة بعد حســـــرة تتهادى

ثم يخاطب المدعي العام في المحاكمة(إبراهيم الهلباوي بك) بأسلوب التهكم والسخرية مزريًا به على قبوله الدفاع عن الإنجليز معرضًا بما كان يقال عن أنَّ الإنجليز وعدوه بان يجعلوه قاضيًا إن هو دافع عنهم، بعدها يوجه الخطاب إلى مصر حانقا عليها أن أنجبت أمثال هذا الرجل فيقول:

لا جرى النيل في نواحيك يا مصـ ـر فأضحى عليك شوكًا قتادا
أنت أنبتِّ ناعقا قام بالأمـــ ـس فأدمى القلوب والأكبادا

ونلاحظ في هذه القصيدة وفي قصائد أخرى أنَّ حافظ يعد النيل أحد مقومات الحياة في مصر، وكان في كثير من الأحيان يحمِّل النيل المسؤولية عن بعض الأحداث التي تحدث في بلده والتي تختلط أحيانا بمسؤولية مصر كالذي نجده في رثائه لمصطفى كامل وغيرها من القصائد[٣٤]. وقد خاطب اللورد كرومر – الذي لم يكن بمصر وقت الحادثة – بقصيدة أشار فيها إلى التقرير الذي أرسله كرومر إلى وزارة خارجية بريطانيا والذي عزى فيه هذه الحادثة إلى التعصب الديني، وحافظ ينفي هذا[٣٥] فيقول[٣٦]:

نقلت لنا الأسلاك عنك رسالة ... باتــت لها أحشاؤنا تتلهَّبُ
ماذا أقول وأنت اصدق ناقل ... عنّا ولـكنَّ السـياسة تكذبُ
إن أرهقوا صُيّادكم فلعلَّـهم ... للقوت لا للمسلمين تعصَّبوا
ولربما ضنَّ الفقير بقــوته ... وسخا بمهجته على من يغصبُ

وفي سنة ١٩١١م يُعيَّن حافظ في دار الكتب فيصبح حبيس وظيفته ويحرص عليها أشد الحرص لا يقول شعرًا قد يغضب أحدًا من السلاطين أو الإنجليز، وليس هذا فحسب بل دعا إلى التعاون مع الإنجليز، كقصيدته في تهنئة السلطان حسين كامل بتولي عرش مصر[٣٧] وفيها يقول[٣٨]:

ووال القوم إنهم كــرامٌ ... ميامــين النقيبة أين حلّوا
لهم ملكٌ على التاميز أضحت ... ذراه على المــعاني تستهلُّ
وليس كقومهم في الغرب قومٌ ... مــن الأخلاق قد نهلوا وعلّوا
فان صادقتهم صدقــوك ودّا ... ولـيس لهم إذا فــتّشت مثلُ
وإن شاورتهم والأمــر جدٌ ... ظــفرت لهم برأي لا يُزلُ

وقد عاب عليه الكثيرون قبوله لهذه الوظيفة ولكن لم نعيِّره على هذا، ونطلب منه التضحية بمورد رزقه ولا نعيِّر من ألجأهُ إليها، ونلومه على صمته ولا نلوم الذين لم يعينوه في فاقته فليس من العدل أن نلومه على هذا[٣٩].

ولم تكن خشيته على وظيفته هي السبب الوحيد في تراجع شعره السياسي والوطني بل يزاد على هذا أن هناك ضربًا من اليأس والقنوط تسرَّب إلى قلب الشاعر، فقد اصطدم جهاد المصريين للإنجليز بوفاة مصطفى كامل أحد أبرز زعماء الحركة الوطنية، وسياسة الوفاق التي اتبعها الخديوي عبّاس مع المحتلين والتي كان من نتائجها إعلان الأحكام العرفية، وحجب أكثر الصحف المصرية عن الظهور، فأصيبت مصر بالإحباط ، ولم يظهر ما يدل على أن الشعب سيثور ضد المحتلين. فما أن حدثت ثورة ١٩١٩م حتى سارع إلى نظم قصيدة في مظاهرة للسيدات خرجت في ذلك الوقت مع انه نشرها بغير اسمه، والقصيدة ممتلئة بالسخرية من الإنجليز[٤٠] الذين تصدوا بقوة لنسوة لا حول لهن ولا قوّة. وفي هذا يقول[٤١]:

فليهنأ الجيش الفخو ... رُ بنصـره وكسرهنّه
فكأنما الألمان قد ... لبسوا البراقع بينهنّه

ثم تأتي سنة ١٩٣٢م، ويحال حافظ إلى المعاش ويتخلَّص من قيد الوظيفة فنشر مقطوعات ضد الإنجليز. من ذلك ما قاله ناعيًا على الإنجليز حيادهم الكاذب[٤٢] يقول[٤٣]:

لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم ... فمصابكم ومصابنا سيّانُ
حاربتمُ أخلاقكم لتحاربــوا ... أخلاقنا فتألّم الشعبــانُ

لكن القدر لم يمهل حافظ إبراهيم طويلاً بعد هذا، فعاجلته المنية ولبّى نداء ربه بعد شهور قليلة مخلفا وراءهُ تراثًا شعريًا خالدًا، ولو مُدَّ له في اجله فلربما شهدنا المزيد من أشعاره الوطنية الرائعة[٤٤].

٢.شعره الاجتماعي:

لم يكن للشعر الاجتماعي منزلة كبيرة في الأدب العربي القديم وإنما كان يتمثَّل بأبيات الأمثال والحكمة، والشكوى من الزمان والناس، وتصوير الناس من وجهة نظر الشاعر الذي كان عادة لا يصور حسناتهم بل ينعى عليهم أخلاقهم ومواقفهم منه كما فعل أبو العلاء المعرِّي والمتنبي وابن الرومي[٤٥] لكنَّه برز كغرض شعري مهم في الأدب العربي الحديث نتيجة للوعي الوطني والقومي الذي ظهر في الوطن العربي بعد الحرب العالمية الأولى[٤٦].

وإذا كانت كثير من القصائد التي نظمت في هذا الغرض لا تتسم بعمق التجربة بسبب طبيعتها الموضوعية لكنَّ المبدأ الذي تقوم عليه ينتمي إلى واقعية متصلة بحاجة الأمة وآمال جمهورها، وتلتقي مع عواطفهم مجسدةً طموحاتهم وتطلعاتهم، وتعبِّر عمّا في نفوسهم من مقاصد اجتماعية، وأمانيَ وطنيةٍ، ومعان تربوية، فراح حافظ إبراهيم مع صاحبيه: أحمد شوقي وخليل مطران وغيرهم من الشعراء ينظمون أشعارهم في هذا الغرض ساعين إلى مجاراة الرأي العام، والمشاركة الوجدانية لأفراد الشعب حتى عُدَّت دواوين هؤلاء الشعراء صورة صادقة لنهضة البلاد وما يجري فيها من أحداث وما يلم بها من خطوب[٤٧].

وقد تميَّز حافظ في هذا الغرض كتميزه في شعره الوطني، وكان بحق الشاعر الاجتماعي إذ كان يأسى لما يعاني قومه من أدواء وعلل، فقد عانى معهم مرارة البؤس، وتأثر بزعماء مصر الوطنيين ومبادئهم لكنَّه في

شعره الاجتماعي كان أحرصَ على العناية بالأدواء والمصائب من عنايته بمظاهر النهوض والرقي وأسبابهما[٤٨]، وله في هذا اللون شعرٌ كثير حارب فيه الفقر والجهل، والعلل الأخلاقية والاجتماعية المختلفة، ودعا فيه إلى البر بالفقراء وإنشاء الملاجئ لهم ، كما في قصيدته التي أنشدها في حفل أقامته جمعية رعاية الطفل دعا فيها إلى دفع الزكاة إلى المحتاجين يقول[٤٩]:

وعلمنا أنَّ الزكاة سبيل اللـــ ـــهِ قبل الصلاة وقبل الصيامِ
خصَّها الله في الكتاب بذكـــر فهي ركن الأركان في الإسلامِ
بدأت مبدأ اليقـــين وظلَّت لحياة الشـــعوب خير قوامِ
لو وفى بالزكاة من جمع الدنـ ـيا وأهوى اقتناء الحطـــامِ
ما شكا الجوع معدمٌ أو تصدّى لركوب الشـــرور والآثامِ

ثم يذكر سبب إنشاده لهذه القصيدة معللا ذلك بإحساسه بما يعانيه هؤلاء البائسون لأنه عانى ما عانوه:

لم أقف موقفي لأنشد شعرًا صُبَّ في قالبٍ بديع النظام
إنما قمت فيه والنفس نشوى من كؤوس الهموم والقلب دامي
ذقت طعم الأسى وكابدت عيشًا دون شربي قناهُ شُرب الحِمام
فتقلبت في الشقاءِ زمانًا وتنقَّلت في الخطوب الجِسام
ومشى الهمّ ثاقبًا في فؤادي ومشى الحزن ناخرًا في عظامي
فلهذا وقفت استعطف النـا سَ على البائسين في كُلِّ عام

وله أكثر من قصيدة في وجوب العناية بالطفل[٥٠]. كقوله[٥١]:

لا تهملوا في الصالحات فإنَّكم لا تجهلون عواقب الإهمالِ
فتسابقوا الخيرات فهي أمامكم ميدان سبق للجواد النالِ
والمحسنون لهم على إحسانهم يوم الإثابة عشرة الأمثالِ

والشاعر في الأبيات السابقة يقرر معنًى مهما من المعاني التي حثَّ عليها الإسلام وهي التكافل الاجتماعي والتسابق في عمل الخير طمعًا في مضاعفة الثواب من الله عزَّ وجل. ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ (البقرة/٢٦١).

وعندما ارتفعت الأصوات التي تنادي بإحلال اللغة العاميّة محل العربية الفصحى بحجَّة عدم مواكبتها للتطور العلمي ، وعدم وجود أسماء للمخترعات الحديثة فيها محاولة النيل من لغة القرآن، وفصم العروة الوثقى بين أبناء الأمّة العربية ، وعزم اللورد كرومر على إحلال اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية في المناهج الدراسية عمَّ السّخط في أوساط الأدباء والكتّاب والشعراء العرب، وألّفت في مصر جمعيّات أدبية لنشر العربية الفصيحة والدفاع عنها ، وقابلوا الحملة بحملة أشدِّ منها[٥٢]، وارتفع صوت حافظ إبراهيم يطعن في دعوة المغرضين بقصيدةٍ رائعة قالها على لسان العربية[٥٣]:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ونـاديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني عقِمت فلم أجزع لقول عُداتي
ولدت ولمّا لم أجد لعرائسي رجالاً وأكفاءً وأدت بناتي
وسعت كتابَ الله حفظا وغايةً وما ضقت عن آي به وعظاتِ
فكيف أضيق اليومَ عن وصف آلةٍ وتنسيق أسماءٍ لمخترعاتِ
أنا البحرُ في أحشائه الدرّ كامنٌ فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي

ثم ينعى على من اطرب لهذه الدعوة بهجره الفصحى، واتخاذه لغة عاميّة ركيكة:

أيطربكم من جانب الغرب ناعبٌ ينـادي بوأدي في ربيع حياتي
ولو تزجرون الطير يومًا علمتم بما تحته من عثرةٍ وشتـاتِ
أيهجرني قومي عفا الله عنهم إلى لغةٍ لم تتصـل برواةِ
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى لعاب الأفاعي في مسيل فراتِ
فجاءت كثوبٍ ضمَّ سبعين رقعة مشكّلة الألـوان مختلفاتِ

ولحافظ أيضًا قصيدة نظمها في حريق مدينة(ميت غمر) صوَّر فيها حال الضحايا، وعِظم الفاجعة التي حلَّت بهم لاستدرار عطف الأثرياء والموسرين عليهم يقول فيها[٥٤]:

سائلوا الليل عنهم والنهـارا كيف باتت نساؤهم والعذارى

كيف أمسى رضـــيعهم فقد الأ ... مَّ وكيــف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العـجوز تحت جدار ... يتداعـــى وأسقف تتجـارى
ربِّ إنَّ القضـــاء أنحى عليهم ... فاكشـف الكرب واحجب الأقدارا
ومر النار أن تكُفَّ أذاهـــا ... ومـــُر الغيث أن يسيل انهمارا
أيّها الرافـلون في حلل الوشـ ... ـي يجرّون للذيـــول افتخارا
إنَّ فوق العراء قومًا جياعًا ... يتوارون ذلـــّة وانكســارا

وله قصائد أخرى دعا فيها إلى النهوض بالتعليم وإنشاء الجامعة المصريّة، وحين أنشئت مدرسة للبنات في(بور سعيد) أقيم حفلٌ لإعانة تلك المدرسة حضره الشاعر وأنشد قصيدته التي يقول فيها[٥٥]:

الأمّ مـــــــدرســـة إذا أعددتهـــا ... أعـــددت شـــــــعبًا طيِّب الأعراق
الأمّ روض إن تـــــــعهَّده الحيا ... بالريِّ أورقَ أيّمـــــا إيـــــــــراق
الأمّ أســـــتاذ الأســـاتذة الألـــى ... شـــــــــغلت مآثرهم مدى الآفاق

كما صوّرَ في شعره الطبيب الذي يأكل أموال الناس بالباطل، والأديب المنافق ، وتهافت الناس على أضرحة الأولياء والتمسّح بها ، وكاد لا يترك علّة من علل مجتمعه إلاّ تناولها في شعره ، وكلّ ذلك يضعه في الإطار نفسه الذي تسلّمه عن أستاذه البارودي بمحافظته على الأصول التقليدية الموروثة وما يتّصل بها من الصياغة الجزلة الرصينة التي تملأ النفس والسمع بما يشيع فيها من رونق وجمال[٥٦].

وقد يؤخذ عليه عدم تعمّقه في دراسة المسائل الاجتماعيّة ، ولم يكن يكوّن فيها رأيًا خاصّا به حتّى بعد بحثها وتمحيصها ودرس حججها ، كموقفه من مسألة الحجاب ، وما أثاره قاسم أمين في كتابه(تحرير المرأة) ، فلم يقطع بخطأ الكاتب أو إصابته ، وحكى بعض أصدقائه عن أنه لم يقرأ كتاب قاسم أمين ، فتراه لا يستطيع الجزم برأي ، أو لا يريد ، غير أن هناك فرقا بين الأديب والعالِم: فالعالم يلاحظ الأشياء ليكتشف ظواهرها وعلاقتها بالأشياء الأخرى والظروف المحيطة بها، أمّا الأديب فهو يلاحظ الأشياء من حيث علاقتها بعواطف الإنسان ومشاعره[٥٧].

ويزاد على ذلك أن الشاعر لم ينل نصيبًا كبيرًا من الثقافة في هذا المجال ، وما كان يملكه استمدّه من تجاربه الشخصية وملاحظاته المباشرة من اختلاطه بعامّة الشعب واتصاله بقادة الفكر ولا سيما الإمام محمد عبده[٥٨].

ومع هذا فلم تعرف العربية قبل حافظ إبراهيم شاعرًا اجتماعيًا من طرازه، فهو في هذا اللون من الشّعر سابقٌ لشعراء العرب جميعًا ، وكانت غايته من هذا الشعر إصلاح الشعب وتقويمه ، وإثارة نفسه ضد معايبه ومساوئه ، ومن أجل ذلك استحقَّ حافظ إبراهيم لقب(الشاعر الاجتماعي) لقبًا انفرد به عن شعراء عصره[٥٩].

الخاتمة:

من أبرز النتائج التي تمَّ التوصُّل إليها في هذا البحث:

١. أن معايشة الشاعر لطبقات الشعب المختلفة من قادة ومفكّرين ومثقفين وغيرهم جعلته بحسِّه المرهف يعبِّر عن آلامهم وآمالهم في شعره.

٢. ما صدر عن الشاعر من أشعار خاطبت المحتلين خطابًا ليِّنًا لم يكن عن اقتناع منه بوجهات نظرهم، أو حبًا لذواتهم، بل كان إمّا لاتقاء شرهم مما قد يلحقونه به من أذى، أو محاباة لإمامه محمد عبده الذي كان يسير على وفق منهج إصلاحي معيّن له فكره الخاص.

٣. انقطاع الشاعر عن نظم الشعر السياسي والوطني إلا ما كان خفية في فترة تعيينه في دار الكتب لا يُعد مثلبة عليه لكونه مضطرا إلى ذلك خوفا على وظيفته وخوفا من السجن وغير ذلك من صنوف الأذى.

هـوامـش الـبـحث

(١) الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ط٥ ، ٦ /٧٦.
(٢) ينظر: مقدمة ديوان حافظ إبراهيم ، (تحقيق: أحمد أمين ، احمد الزين ، إبراهيم الأبياري) ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ط٤ ، /١ ، الأعلام ٦ /٧٦ ، النيل في الأدب المصري ، د.نعمات أحمد فؤاد ، دار المعارف للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، (د.ط.) ، /٣٣٦.
(٣) ينظر: حافظ دراسة تحليلية ، عبد اللطيف شرارة ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت.) ، (د.ط.) ، /٩.
(٤) ينظر: الأعلام ٧٦/٦ ، مقدمة ديوان حافظ إبراهيم /١٢.
(٥) ينظر: مقدمة ديوان حافظ إبراهيم /١٥ ، فصول في الشعر ونقده ، د.شوقي ضيف ، دار المعارف للطباعة والنشر ، القاهرة ، (د.ت.) ، ط٣ ، /٣٥٤،٣٥٥.
(٦) ينظر: دمقس وأرجوان ، مارون عبود ،دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ط٣ ، /١١١.
(٧) ديوان حافظ إبراهيم ١٨٤/٢.

(٨) ينظر: مقدمة ديوان حافظ إبراهيم /١٥.
(٩) الشوقيات ، أحمد شوقي ٢٤/٣.
(١٠) ينظر: في الأدب الحديث ، عمر الدسوقي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ط٧ ، ٣١٥/٢ ، فصول في الشعر ونقده /٢٨٦.
(١١) الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، عز الدين إسماعيل ، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت، ١٩٧٢ ، ط٢ ، /٤٣.
(١٢) ينظر: مقدمة ديوان حافظ إبراهيم /٤٢.
(١٣) ينظر: فصول في الشعر ونقده /٣٥٦.
(١٤) ديوان حافظ إبراهيم ١٠٥/٢.
(١٥) ينظر: مقدمة ديوان حافظ إبراهيم /١٩.
(١٦) ينظر: فصول في الشعر ونقده / ٢٨٦.
(١٧) ينظر: فصول في الشعر ونقده / ٣٥٦.
(١٨) ينظر: مقدمة ديوان حافظ إبراهيم / ٣٨.
(١٩) ينظر: المصدر نفسه / ٣٨-٣٩.
(٢٠) ينظر: المصدر نفسه / ٣١ ، فصول في الشعر ونقده / ٣٥٧.
(٢١) حافظ وشوقي ، طه حسين /١٥٣.
(٢٢) ديوان حافظ إبراهيم ٢٦٨/١.
(٢٣) المصدر نفسه ٦/٢.
(٢٤) ينظر: حافظ دراسة تحليلية /٣٧.
(٢٥) ديوان حافظ إبراهيم ٢٥٧/١.
(٢٦) المصدر نفسه ٧/٢.
(٢٧) المصدر نفسه ١٨/١.
(٢٨) المصدر نفسه ٢٧/٢.
(٢٩) ينظر: فصول في الشعر ونقده /٣٥٣.
(٣٠) ينظر: في الأدب الحديث ١٠٤/٢.
(٣١) ينظر: المصدر نفسه ١٠٤/٢ ، ١٠٦ ، مصادر الدراسة الأدبية ، يوسف أسعد داغر ، مطابع لبنان ، بيروت ، ١٩٥٦ ، (د.ط.) ، /٢٨٦.
(٣٢) ينظر: في الأدب الحديث ١٠٦/٢- ١٠٧.
(٣٣) ديوان حافظ إبراهيم ٢٠/٢.
(٣٤) ينظر: النيل في الأدب المصري/٣٣٨ ، ٣٤٠.
(٣٥) ينظر: في الأدب الحديث ١٨٠/٢.
(٣٦) ديوان حافظ إبراهيم ٢٢/٢.
(٣٧) ينظر: مقدمة ديوان حافظ إبراهيم /١٨ ، في الأدب الحديث ١١٣/٢.
(٣٨) ديوان حافظ إبراهيم ٦٧/١.
(٣٩) ينظر: مقدمة ديوان حافظ إبراهيم /٣٥-٣٦.
(٤٠) ينظر: فصول في الشعر ونقده /٣٥٨-٣٥٩ ، في الأدب الحديث ١١٤/٢.
(٤١) ديوان حافظ إبراهيم ١٠٧/٢.
(٤٢) ينظر: في الأدب الحديث ١١٥/٢.
(٤٣) ديوان حافظ إبراهيم ١٠٧/٢.
(٤٤) ينظر: فصول في الشعر ونقده /٣٦٠.
(٤٥) ينظر: في الأدب الحديث ٢٩٦/٢.
(٤٦) ينظر: الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي ، د. محمد حسين الأعرجي ، المركز العربي للثقافة والعلوم ، بيروت ، (د.ت.) ، (د.ط.) ، /٣٤.
(٤٧) ينظر: الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره ، د. سالم أحمد الحمداني وأخر /٩٧ ، خليل مطران شاعر الأقطار العربية ، د. جمال الدين الرمادي ، دار المعارف للطباعة والنشر ، (د.ت.) ، (د.ط.) ، /٣٠٥.
(٤٨) ينظر: في الأدب الحديث ١٨٨/٢، ٢٠٠.
(٤٩) ديوان حافظ إبراهيم ٢٨٧/١.
(٥٠) ينظر: فصول في الشعر ونقده /٣٥٧.
(٥١) ديوان حافظ إبراهيم ٢٧٩/١.
(٥٢) ينظر: فصول في الشعر ونقده /٣٥٣ ، في الأدب الحديث ٤٥/٢.
(٥٣) ديوان حافظ إبراهيم ٢٥٣/١.
(٥٤) المصدر نفسه ٢٥٠/١.
(٥٥) المصدر نفسه ٢٨٢/١.
(٥٦) ينظر: فصول في الشعر ونقده /٣٥٧ ، ٢٨٦ ، في الأدب الحديث ٢٠١/٢.
(٥٧) ينظر: مقدمة ديوان حافظ إبراهيم /٣٣-٣٤.
(٥٨) ينظر: تأريخ الأدب العربي ، حنّا الفاخوري ، مطبعة دار الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ط٢ ، /٩٦٧.
(٥٩) ينظر: فصول في الشعر ونقده /٣٥٧.